

المشكلة الجزئية الخامسة : في العادة و الإرادة

العنصر : أثر العادة على سلوك الإنسان

السؤال : هل العادة سلوك سلبي أم إيجابي ؟

المقدمة : من الخصائص التي تميز الإنسان في طبيعته هو أنه كان من يملك القدرة على تشكيل سلوكياته و تعديلها حسب وضعيات مختلفة و بفضل هذه الخاصية يتعلم الإنسان سلوكيات و مهارات يؤديها في شكل عادات و العادة هي قدرة مكتسبة على أداء عمل ما بطريقة آلية مع الدقة و السرعة و الاقتصاد في الجهد و الوقت ، غير أن البحث في أثر العادة على سلوك الإنسان كان من بين المشكلات الفلسفية التي شغلت اهتمام العديد من المفكرين و الفلاسفة و علماء النفس نتج بشأنها اختلاف في المواقف و تباين في التصورات ، إذ يعتقد البعض منهم بأن آلية العادة تقييد الإنسان و تسليبه خصائصه الإنسانية و بذلك تكون سلوك سلبي ، بينما يشكك آخرون في هذا الطرح و يذهبون إلى القول بأن العادة ليست سلوك سلبي و إنما تحقق التكيف و الانسجام و بذلك فهي سلوك إيجابي ، و في ظل هذا الجدل القائم يثار التساؤل التالي : **هل العادة تعيق فعالية الإنسان و تقييد إرادته أم هي قدرة تكيفية تحقق الانسجام و التوافق ؟**

العرض (محاولة حل المشكلة) :

1 - عرض منطق الأطروحة : يرى بعض المفكرين و الفلاسفة و علماء النفس و الإجتماع في مقدمتهم إيمانويل كانت و جون جاك روسو أن العادة إعاقة تشكل عتبة أمام التكيف و التلاطم مع مواقف الحياة فالعادة في نظرهم تسلب الفرد خصائصه الإنسانية و تقييد إرادته و حريته

و يستند أنصار هذا الاتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

الحججة الأولى : العادة تسبب الركود و الجمود و تقضي على المبادرات الفردية و تستبد بالإرادة فيصبح الفرد عبدا لها مما ينتج عنه عدم التأقلم أو التكيف مع المواقف الجديدة و الدليل على ذلك أن سائق السيارة الذي اعتاد قيادة سيارته من جهة اليمين و دفعته الضرورة إلى قيادتها من جهة اليسار فإنه يجد صعوبة في ذلك الأمر نفسه ينطبق على التلميذ الذي تعود على الكتابة الأدبية فإنه يجد صعوبة في كتابة مقالات بأساليب أخرى لا لشيء إلا لأن عاداته السابقة كانت حاجزا أمام تعلمه للجديد لذلك فالعادة قد تمنع الإنسان من التطور و التحرر يقول филسوف الفرنسي

أوغست كونت : ((العادة جمود))

و يقول جون جاك روسو : ((كلما زادت العادات عند الإنسان كلما أصبح أقل حرية و استقلالية))

الحججة الثانية : و العادة كذلك تضعف الحساسية و تقوي الفعالية الحركية الحسية على حساب الفعالية الفكرية (الذهنية) و الدليل على ذلك أن الطالب في كلية الطب تعود على أن لا ينفعه أثناء قيامه بالتشريحات لذلك نجد جون جاك روسو يقول : ((إن المعانبة المستديمة لمشهد البوس تقسى القلوب)) و هذا ما نبه إليه الشاعر الفرنسي سولفي بروડوم الذي يقول في هذا الصدد : ((إن جميع الذين تستولي عليهم قوة العادة يصبحون يوجوههم بشراً و يحركاتهم آلات))

الحججة الثالثة : ثم إن العادة تعيق التفكير و الإبداع و تقضي على المبادرات الفردية و كذا الروح النقدية و بذلك فهي تقيم عقبة إبستمولوجية (معرفية) أمام المكتسبات الجديدة إذ كثيرة ما ترفض الحقائق العلمية الجديدة لتعود الناس على الحقائق القديمة فالحقيقة العلمية التي أعلن عنها **وليام هارفي** في الدورة الدموية بقيت مرفوضة لمدة 40 سنة لتعودهم على الفكرة القديمة لهذا قيل : ((إن كبار العلماء يقدرون العلم في النصف الأول من حياتهم و يضرونه في النصف الثاني منها))
الحججة الرابعة : كما أن للعادة أثر خطير على الصعيد الاجتماعي و يجعل العقول متمسكة بالخرافات و البدع و العادات و التقاليد البالية رغم توفر البراهين على بطلانها الأمر الذي يعيق مسيرة الحياة الجديدة لهذا يقول روسو : ((خير عادة تتعلمها الطفل هو أن لا يعتمد على شيء))

النقد : بالرغم من الآثار السلبية للعادة على سلوك الإنسان إلا أنها تبقى وظيفة نفسية حيوية يقتضيها التكيف الإنساني

2 - عرض نقيس الأطروحة : على خلاف الموقف الأول يرى بعض المفكرين و الفلاسفة و علماء النفس و الاجتماع في مقدمتهم **مين دو بيران** و **موسلي** بأن العادة تترك آثار إيجابية على سلوك الإنسان فهي في نظرهم أداة للتكيف و شرط وجود المجتمع

و يستند أنصار هذا الاتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

الحججة الأولى : ذلك أن العادة تحرر الانتباه و الشعور و يجعل الفرد يوحي أكثر من عمل واحد في وقت واحد و مثل ذلك التلميذ الذي يتقن الكتابة بطريقة آلية و في نفس الوقت يستطيع أن يركز انتباهه للدرس و بهذه تيسير العمل و يجعل صاحبها

يؤديه بمهارة فالعادة تحرر الانتباه و الإرادة تجعل الإنسان مستعد لإنجازات جديدة

و مواجهة مواقف جديدة و لهذا يقول مودسلி : ((لولا العادة لكان في قيامنا

بوضع ملابسنا و خلعها يستغرق نهارا كاما))

الحججه الثانية : ثم إن العادة تحقق المرونة في العمل إذ تجعل المتعود يؤدي أعماله بدون مشقة أو عناء و الفرق واضح بين المتعود على السياقة و المبتدأ فيها فال الأول يؤديها بيسر و بأقل تكلفة بينما الثاني يؤديها بصعوبة و مشقة أكبر و مرد ذلك أنه لم يتعود عليها بعد

الحججه الثالثة : هذا بالإضافة إلى أن العادة تقدم خدمات كبيرة منها الاقتصاد في الوقت و الجهد بنوعيه العضلي و الفكري و تحقق الدقة و الإتقان في العمل هذا و أن إكتساب عادة من العادات تساعده على إكتساب عادات أخرى مثل فالشخص الذي يضرب على الآلة الراقفة لن يجد صعوبة في الكتابة أو التعلم على الكمبيوتر لذلك يقال : ((إن إكتساب فضيله يساعد على إكتساب أخرى))

الحججه الرابعة : هذا و أن العادات الحسنة من شأنها أن تكون عقبة أمام إكتساب العادات السيئة فالمتعود على الإستقامة و الصدق و الإخلاص لا يمكنه أن يتصرف على خلاف ما تعود عليه فمثلا التلميذ الذي لم يحصل له أن يغش في مسيرته الدراسية لا يستطيع أن يغش

الحججه الخامسة : كما أن للعادة أثر فعال في التكيف فهي تتحقق التلافهم المطلوب بين الفرد و الظروف الطبيعية فلولا التعود لما تمكن سكان الصحراء من العيش في المناطق الحارة و لولاها لما تمكن سكان الإسكيمو من العيش في الجو البارد و لولاها أيضا لما تمكن الغواص من العمل في أعماق البحر

الحججه السادسة : كما أن العادة تحقق الانسجام و التوافق بين أفراد المجتمع لأنها تجعل البنية مألوفة لهم و هذا ما يفسر لنا العلاقات الاجتماعية و مرونتها و سهولتها فتصبح لديهم عادات مشتركة مثل الغذاء ، الملبس ، المأكل الخ

الحججه السابعة : كما أن التعود على الصعاب و الاعتماد على النفس يكسب صاحبه الثقة بالنفس و هذا ما يؤدي إلى تقوية الشخصية

النقد : صحيح أن للعادة أثار إيجابية نافعة تيسير العمل و تحقق التكيف إلا أن ذلك لا يعني أن كل العادات إيجابية فاستقراء الواقع يكشف أنها قد تعيق الفكر و تتسبب في تراجع الشخصية بدل من تطورها و تقدمها كالإدمان على المخدرات مثلًا